

من قضايا الأسلوب في تفسير الألوسي: استقبال النص

عاصم حمدي أحمد عبد الغني

Asem Hamdy ABDELGHANY

Necmettin Erbakan Üniversitesi İlahiyat Fakültesi

Arap Dili ve Belâğatı Anabilim Dalı Misafir Öğretim Görevlisi

aassem_hamdi@yahoo.com

EI-ÂLÛSÎ TEFSİRİNDE ÜSLUP PROBLEMLERİ: "METNİN ALIMLANMASI"

Bu araştırma, el-Âlûsî Tefsirinde, metnin alımlanma -okuyucu tarafından algılanma- şekillerini ele almaktadır. el-Âlûsî Tefsirini, dil ve belâgat yönlerine odaklanarak okuyan kişi, onun, "metni alımlama" hususunda birçok konuya önem verdiğini fark eder. Mesela el-Âlûsî bizlere, okuyucunun metin karşısındaki durumunu ve metinle etkileşimini ortaya koyar. Ayrıca el-Âlûsî metnin okuyucu üzerindeki etkilerinin bazı şekillerini ve dilsel-retorik göstergelerin bu konudaki rollerini de açıklar.

Araştırmayı sürdürürken, bu meselelerle ilgili dilbilim kitaplarından yola çıktık ve konunun izlerini el-Âlûsî Tefsirinde takip ettik. Bu araştırma giriş ve iki bölümden oluşmaktadır. Birinci bölüm okuyucu, ikinci bölüm metin ile ilgilidir.

Abstract

This research deals with the echoes of reception theory in the Quranic interpretation of Al-alusi. The reader of the interpretation of Al-alusi with its linguistic and rhetorical concerns, notices his interest in many of the issues related to reception. For example he portrays us the position of the reader towards the text and its interaction with the reader to produce a productive reading. al-Alusi also indicates some patterns of the effect of the text on the recipient (the reader) and the role of linguistic phenomena and rhetorical in this.

The researcher started with books of linguistics concerned with these issues and then followed the issue in the interpretation of Al-alusi to know the features of these issues in the interpretation. This research has been divided into two sections, the part dealing with the receiver (reader) and the one dealing with the text.

الملخص

هذا البحث يتناول ملامح استقبال النص في تفسير الألوسي فمن يطالع تفسير الألوسي باهتماماته اللغوية والبلاغية يلاحظ اهتمامه بالعديد من المسائل المتعلقة باستقبال النص؛ فنجد مثلاً يصور لنا موقع المتلقي من النص وتفاعله معه كما بين الألوسي بعض أشكال تأثير النص في المتلقي ودور الظواهر اللغوية والبلاغية في ذلك

وفي أثناء هذا البحث انطلقنا من كتب اللسانيات المعنية بهذه المسائل، ثم تابعتها في تفسير الألوسي لمعرفة ملامح هذه المسائل في تفسيره، وقد قسم هذا البحث إلى مقدمة وقسمين: قسم خاص بالمتلقي وقسم خاص بالنص.

الكلمات المفتاحية : الألويسي - ضبط الاستقبال - التلقي - الإقناع - العدول

المقدمة:

منذ اللحظة الأولى لحديث البلاغيين عن المصطلحات البلاغية مثل: الفصاحة والبلاغة والبيان... وهم يبنهون على أهمية التأثير في المتلقي ومراعاة أحواله ومطابقة الكلام لمقتضى حاله^(١).

وكان هذا الاهتمام نابعا من طبيعة التواصل الأدبي نفسه؛ فصاحب النص لا ينظمه لنفسه، وإنما ينظمه لمتلق، ولا أهمية للنص بدون التفاعل بينه وبين متلقيه، وهذا التفاعل كفيل بتحقيق الهدف المطلوب من النص "فلا يمكن تصور عناصر لغوية تحدث تأثيرا على القارئ دون أداء دور في تكوين دلالة النص، وكذا لا وجود فعلي لهذه الدلالة دون استحضر المتلقي الذي يتواصل مع النص ويرصد معانيه وأفكاره"^(٢).

والعلاقة بين البلاغة والتلقي علاقة وثيقة فالتلقي الحسن هدف البلاغة فنجاح القول البليغ يظهر في القدرة على "الوصول إلى الآخر، ولك أن تتوقف قليلا عند مصطلح البلاغة نفسه لتجد فيه التلقي معبرا عن نفسه بمصدر الفعل بلغ"^(٣).

ويجب التفريق في هذا المقام بين التلقي كظاهرة وبين ظهوره كنظرية؛ على يد المنظرين الذين حددوا لها مصطلحا باسمها، فقبل أن تظهر نظرية التلقي في العصر الحديث كانت ظاهرة التلقي ضاربة في القدم فمنذ أن كان هناك إبداع أدبي كان هناك تلقى لهذا الإبداع.

ونظرية التلقي تشير على الإجمال إلى تحول جوهري من الاهتمام بمبدع العمل إلى الاهتمام بالقارئ ويعد مقال هانز روبرت ياكوس Hans Robert Jauss في عام 1969 تحت عنوان "التغيير في نموذج الثقافة الأدبية" في نظر الكثيرين نقطة انطلاق النظرية وفيه بشر ياكوس Jauss بمولد نموذج أدبي جديد .

¹ يراجع على سبيل المثال التفتازاني، سعد الدين ، مختصر المعاني، 17 وانظر أيضا ما نقله الجاحظ عن بشر بن المعتمر إذ يقول "وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال وكذلك اللفظ العامي والخاصي فإن أمكنك إن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك على أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلتفت عن الدهماء ولا تحفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام" البيان والتبيين للجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر 1/136.

² شلبي، طارق سعد، الدرس التطبيقي في النقد العربي، 127

³ إستيتية، سمير شريف، ثلاثة اللسانيات التواصلية 7.

ولم تكن نظرية التلقي وليدة فكر فردي ولكنها كانت نتيجة لعمل جماعي منظم " فلقد اشترك هانس روبرت يابوس Hans Robert Jauf وهانس بولمنبرج Hans Blumenberg وكلمنس هيذنهاوس Clemens Heselhaus وفولفجانج إيزر Wolfgang Iser في تأسيس جماعة للبحث العلمي تحمل اسم "الأدب والمهرمينوتك". واجتمعت اللجنة للمرة الأولى في ندوة عام 1963 عن "التقليد والخيال" وتقابلت في هذه المجموعة علوم مختلفة فلسفية ولغوية وفنية واجتماعية وتاريخية ودينية، وذلك في تحقيق لما حلم به يابوس من قبل وهو حوار العلوم الإنسانية النظرية، واستمر عمل هذه المجموعة خمسة وثلاثين عاماً، وقدمت هذه المجموعة سبعة عشر مجلداً عن مواضيع مركزية في العلوم الإنسانية الحديثة ظهر آخرها في عام 1998، ويابوس هو الوحيد الذي شارك في جميع ندواتها وشارك في جميع إسهاماتها ونادي يابوس بما يطلق عليه Reform der Geisteswissenschaften⁽⁴⁾ أي إصلاح أو إعادة تشكيل العلوم الإنسانية. ويعد فولفجانج إيزر Wolfgang Iser إلى جانب يابوس واحد من أهم المنظرين للتلقي. والملاحظ أن لكل من العالمين اتجاهه الخاص "فعلى الرغم من أنها قد اهتمت بإعادة تشكيل النظرية الأدبية عن طريق صرف الأنظار عن المؤلف والنص وتركيزهما مرة أخرى على علاقة النص / القارئ فإن مناهجهما الخاصة في معالجة هذه النقطة قد اختلفت اختلافاً حاداً. فعلى حين تحرك يابوس أستاذ اللغات الرومانية بصفة مبدئية نحو نظرية التلقي من خلال اهتمامه بتاريخ الأدب برز إيزر أستاذ الأدب الإنجليزي في مجال التوجهات التفسيرية في النقد الجديد ونظرية القص... فإذا عنّ للمرء أن يرى في يابوس باحثاً في عالم التلقي الأكبر فإن إيزر يبدو مشتغلاً بعالم التأثير (Wirkung) الأصغر"⁽⁵⁾.

والناظر إلى جهود النقاد والبلاغيين العرب يجدهم قد اهتموا بظاهرة التلقي وإن لم يقدموا لها نظرية باسمها تضم ملامح التلقي، فعلى أساسها فسر ابن قتيبة وجود المقدمة الطللية حين قال "ليميل القلوب ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي إصغاء السامعين"⁽⁶⁾.

⁴ مطاوع، هشام. السياق الثقافي لنظرية استقبال النص بين الدراسات العربية والغربية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة المنوفية، مصر، 2011م.

⁵ هولب، روبرت. نظرية التلقي، 201

⁶ الدينوري، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 75

وكذلك عندما بدأ الأمدي في الموازنة بين الطائنين بدأ بإيراد احتجاجات أنصارهما⁽⁷⁾، فكان المتلقي عنده أساساً من أسس عملية الموازنة، ونبه الإمام عبد القاهر إلى ما يقوم به المبدع من إخفاء للمعنى لبحث عنه المتلقي ويسير وراءه يقول "ولم أزل منذ خدمت العلم، أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيحاء والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين لبحث عنه، فيخرج، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبني عليها..."⁽⁸⁾ والشواهد من التراث على ذلك كثيرة جداً، وهي تشكل محاولات لتنظير التلقي من منطلق التعامل مع النصوص بالفطرة اللغوية العربية التي فطر الله العرب عليها التي عدت أساساً عند عبد القاهر الجرجاني لإدراك البلاغة حين عقد فصلاً عنوانه "إدراك البلاغة بالذوق وإحساس النفس"⁽⁹⁾، فهو إذاً يلغي أي تصور تعييدي سابق لأي ظاهرة قبل النظر فيها.

تعددت الرؤى قديماً وحديثاً في طريقة التعامل مع النصوص الأدبية وتحليلها؛ فهناك من يلقي الضوء على عصر المؤلف وظروفه الاجتماعية والسياسية والفكرية والأدبية وارتباط ذلك بإنتاجه الإبداعي، وهناك من تناول حياة الكاتب النفسية وأثرها على النصوص مستوحياً نظريات علم النفس، وهناك من انتهج نهج الدراسة الفنية من خلال استبيان خصائص الأسلوب وطرق التعبير والأدوات البلاغية والمحسنات البلاغية وغيرها، وهناك من يقارن أسلوب الكاتب بأسلوب غيره من الكتاب، وهناك من بحث البنية الهيكلية للنصوص للوصول إلى نتائج يمكن تعميمها فيما يعرف بالبنوية التي أفرزت نتائج جيدة في مجال القصة والرواية، وإن لم تكن نتائجها كما هو مرجو منها في الأجناس الأدبية الأخرى ذلك أنها لم تنبّه إلى الإمكانيات اللغوية في النص التي تصنع جماليته؛ فالأسباب التي تعطي العمل الأدبي قيمة "لا تقاس بوجود هذه التقنية الفنية أو تلك ولا بغايتها عنه، إنها تعود إلى أسباب لم يستطع علم الجاهل البنيوي الإحاطة بها، ولقد حث قصور المنهج البنيوي الدارسين على تجديد طرقهم في النقد الأدبي. وصار هذا التجديد ممكناً عندما خرجت الدراسات الألسنية من الميدان الذي كان مؤسسوها قد رسموه لها فأشرفت على آفاق جديدة"⁽¹⁰⁾.

⁷ الأمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر، الموازنة، الجزء الأول ص 6 وما بعدها

⁸ الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز 34.

⁹ دلائل الإعجاز 546 وما بعدها.

¹⁰ سحلول، حسن مصطفى، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، 9

كان لظهور مفهوم التداولية وتمكنه في الدراسات الألسنية الحديثة أثر كبير في الاهتمام بمسألة التلقي بجانب قضايا أخرى كالعدول...؛ إذ إن أحد اهتمامات التداولية التأثير والتأثر في قلب الخطاب، ودور العناصر اللغوية في إحداث التأثير في المتلقي مع الأخذ في الاعتبار الثنائي الذي يشكله الشخص المتكلم والشخص الذي يوجه إليه كلامه.

يعد النص القرآني أرقى الأشكال اللغوية وأكثرها تأثيراً في المتلقي؛ فهو يراعي مشاركة المتلقي واستدعاء استجابته التي كثيراً ما كان يرصدها المفسرون مراعين رصد أثر العناصر اللغوية في أداء تلك المهمة، وقد كان الألوسي من أكثر المفسرين اهتماماً بهذه المسألة فكثيراً ما كان يعالج الظواهر اللغوية من منطلق التلقي، وليس هذا فحسب بل عالج مسألة المناسبة بين الآيات من منطلق التلقي إذ يفترض من المتلقي عند سماع صدر الآية سؤال تكون نهاية الآية هي الإجابة عنه، وهكذا تكون حركة المتلقي الفطن مع النص يثر فيه النص رغبة في المعرفة فيطرح سؤالاً ثم يتلقى إجابة هذا السؤال عند ذلك يتمكن المعنى في نفسه أفضل تمكن، وهو يرصد كافة أشكال التأثير في المتلقي من تأثير عاطفي وحجاجي إقناعي عقلي وغيرها من المسائل التي تتعلق بالتلقي التي تظهر من خلال تفسيره.

لا يخفى أن كل تفسير هو قراءة جديدة للقرآن الكريم⁽¹¹⁾ تحاول أن تقف على معانيه، وهي في حد ذاتها قراءة منتجة إذا ما استدركت شيئاً لم تنبه إليه القراءات السابقة عليها، خاصة حينما يمتلك المفسر خلفية ثقافية كبيرة تلقي بظلالها عليه عند قراءة النص، وقد كان للألوسي قراءة متميزة للنص القرآني إذ جمع في قراءته كل ما تلقاه عن العلماء من مختلف التوجهات الفكرية فقد كان يجمع بين التفسير باللغة والبلاغة والرواية وغيرها كما كان يفسره - في كثير من الأحيان - وفق الخلفية الصوفية بتفسيرها الإشاري الذي يستلهم الرموز الصوفية، ورغم ما قيل عن صحة هذا التفسير شرعياً⁽¹²⁾، إلا أنه يعد قراءة خاصة للنص القرآني من خلال اعتبار أن النص به رموز وإشارات متصلة تستدعي القراءة التأملية المؤولة، ولعل هذا من عمل القارئ المؤول؛ وليس معنى ذلك سيطرة التفسير الإشاري على التفسير كله؛ فهناك القراءة التي تعتمد على السياق التي تنافي في أساسها التفسير الإشاري، فالتأويل في كثير من الأحيان - والتفسير الإشاري بشكل خاص - يظهر عند انتزاع النص من سياقه. ومن الغريب أنه كان يجمع بين هذه القراءات وكأنه لا يرى أنها متناقضة وإنما يراها متكاملة.

كثيراً ما يقف النقاد في العصر الحديث موقف المقارنة بين نظرتين للتلقي نظرة البلاغيين القدماء ونظرة علماء الأسلوب؛ فالقدماء كان لهم اهتمام خاص بالمتلقي الذي يعني عندهم السامع والمخاطب أما القارئ فلم يكن واردا لديهم، والنظرة الحديثة التي تقوم على علاقة مزدوجة بين القارئ والنص علاقة جدلية تتحرك من النص إلى المتلقي كما

¹¹ كما يقول الإمام علي - كرم الله وجهه - حال أوجه.

¹² انظر الاعتراضات على التفسير الإشاري في التفسير والمفسرون للذهبي ج 1 / 256 وما بعدها.

تتحرك من المتلقي إلى النص وصارت هذه العلاقة أساساً من أسس الدرس الأسلوبي المعاصر وهذه العلاقة المزدوجة لم يكن لها وجود في الدرس القديم فالمتلقي للعمل الأدبي كان مستهلكاً أكثر منه منتجاً فهو يتقبله ويبدى تأثره بظواهره التعبيرية دون أن يحاول إعادة تركيبه أو تحميلة من المضامين ما يتفق ورؤيته أو تفكيره وثقافته فموقف المتلقي سلبي إلى حد ما ينحصر في جانبي الإقناع والإمتاع دون الأخذ في الاعتبار إعادة صياغة النص صياغة جديدة⁽¹³⁾، ولا يخفى أن هذه النظرة الحديثة تتميز بالاتساع الفصفاض الذي قد لا يحتاجه تحليل النص؛ فالمعول عليه في هذا الأمر هو حاجة النص نفسه؛ فالنص هو الذي يحدد طريقة تحليله ومقارنته بغض النظر عن التصورات النقدية المسبقة، كما أن الانغمار في تطبيق النظريات لا يجب أن ينسي الباحث الطبيعة الخاصة بالنص العربي بصفة عامة والنص القرآني بصفة خاصة، فالباحث مدعو إلى إعادة النظر في المقولات النظرية وعدم الأخذ الحرفي بها.

في ضوء ما سبق يحاول الباحث استبيان جهود الألوسي في مجال التلقي التي تعد محددات نظرية لرؤيته في هذه القضية من خلال مقارنته للنص القرآني.

أولاً: المتلقي

المتلقي وموقعه في النص:

يتحدث الألوسي عن أهمية اعتبار دور المتلقي، حتى إن النص القرآني يعتمد إلى إيهام بعض الأمور لتوجيه أذهان السامعين نحوها وإنزالهم منزلة المستفهمين كما في بداية سورة النبأ؛ يقول الألوسي "(عم يتساءلون عن النبأ العظيم)⁽¹⁴⁾ بيان لشأن المسئول عنه إثر تفخيمه بإيهام أمره وتوجيه أذهان السامعين نحوه وتنزيلهم منزلة المستفهمين، فإن إيراده على طريقة الاستفهام من علام الغيوب للتنبيه على أنه لانقطاع قرينه وانعدام نظيره خارج عن دائرة علوم الخلق خلق بأن يعنى بمعرفته ويسأل عنه كأنه قيل عن أي شيء يتساءلون هل أخبركم به؟ ثم قيل بطريق الجواب عن النبأ العظيم على منهاج {لمن الملك اليوم لله الواحد القهار}⁽¹⁵⁾ ف"عن" متعلقة بما يدل عليه المذكور من مضمحل حق على

¹³ ذكي، محمد صلاح، القضايا البلاغية والأسلوبية في مفتاح العلوم للسكاكي ص22، ومن المعروف أن إعادة قراءة النص في ضوء سياقات جديدة لا يغير من طبيعة النص فحسب، وإنما يغير من بنيته كذلك لأن النص يعاد تشكيله حينئذ وفق السياق الجديد للمتلقى، وبالتالي فإن المتلقي وفق هذه النظرة يقتنع بفكرة ثم يحاول لي عتق النصوص كي توافق مقاصده لا مقاصد صاحب النص. انظر أسامة حسن سكر، السياق في التفكير

البلاغي 345.

¹⁴ النبأ 1، 2

¹⁵ غافر 16

ما قيل أن يقدر بعدها مسارعة إلى البيان ومراعاة لترتيب السؤال وإلى تعلقه بها ذكر⁽¹⁶⁾، ويلاحظ من فحوى هذه الرؤية التي قدمها الألوسي أن النص القرآني يثير في التلقي سؤالاً تكون الإجابة عنه الآية التالية للآية التي أثارت في نفسه هذا السؤال، ولا يخفى ما في ذلك من التفاعل الخلاق بين النص ومتلقيه الذي يمثل علاقة جدلية تتحرك من النص إلى المتلقي كما تتحرك من المتلقي إلى النص⁽¹⁷⁾.

ومن ذلك أيضاً حديثه عن مناسبة قوله تعالى "أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى"⁽¹⁸⁾ بما قبلها يقول "أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى" إشارة إلى المنافقين الذين تقدم ذكرهم الجامعين للأوصاف الذميمة من دعوى الصلاح وهم المفسدون، ونسبة السفه للمؤمنين وهم السفهاء والاستهزاء وهم المستهزأ بهم ولبعد منزلتهم في الشر وسوء الحال أشار إليهم بما يدل على البعد، والكلام هنا يمكن أن يكون واقعاً موقع "أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ"⁽¹⁹⁾ فإن السامع بعد سماع ذكرهم وإجراء تلك الأوصاف عليهم كأنه يسأل: من أين دخل على هؤلاء هذه الهيئات؟ فيجيب بأن أولئك المستبعدة إنما جسروا عليها لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى حتى خسرت صفقتهم وفقدوا الاهتداء للطريق المستقيم ووقعوا في تيه الخيرة والضلال⁽²⁰⁾.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل إنه ليعتبر النص عبارة عن إجابات لأسئلة أثارها النص من قبل ثم تأخذ شكل الحوار بين النص والمتلقي المفترض الذي عبر عنه بقوله (كأنه قيل) ويظهر ذلك في تفسير قوله تعالى "ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ"⁽²¹⁾ إذ يقول "بالحمل على الاستئناف كأنه سئل ما باله صار معجزاً؟ فأجيب بأنه كامل بلغ أقصى الكمال لفظاً ومعنى وهو معنى "ذلك الكتاب"⁽²²⁾ ثم سئل عن مقتضى الاختصاص بكونه هو الكتاب الكامل

¹⁶ روح المعاني، ج 15، ص: 203

¹⁷ شلبي، طارق سعد، الدرس التطبيقي، ص 135 ويرى أن لتلك العلاقة الحق في كونها أساساً من أسس الدرس الأسلوبي لذلك.

¹⁸ البقرة الآية 16

¹⁹ البقرة: 5.

²⁰ روح المعاني ج 1، ص: 163.

²¹ البقرة 2.

²² البقرة 2.

فأجيب بأنه لا يحوم حوله ريب ثم لما طوّل بالدليل على ذلك استدلّ بكونه "هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ" ⁽²³⁾ لظهور اشتماله على المنافع الدينية والدنيوية والمصالح المعاشية والمعادية بحيث لا ينكره إلا من كابر نفسه وعاند عقله وحسه ⁽²⁴⁾. والشواهد على هذه الفكرة في تفسير الألوسي كثيرة جداً وقد أدرك المفسر نفسه ذلك فعبر عنها بقوله "ديدن كل معالج لجوج" ⁽²⁵⁾، وقريب من هذه الفكرة فرضية القارئ الضمني "وتتمثل في دراسة أبنية النصوص الأدبية ذاتها لرصد استراتيجيات المرسل التي يتخذها كي يلفت انتباه المرسل إليه، مما يجعله يترك في النص فراغات كافية تسمح بتنشيط عملية القراءة في التعامل البناء للخلق الفني للعمل الأدبي" ⁽²⁶⁾، لا يقول الباحث بالتطابق التام بين الفكرتين؛ إذ لا يمكن القول بأن القرآن الكريم فراغات، ولكن يمكن القول بأنه يتيح للمتلقى التفاعل معه بأن يثير فيه سؤالا تأتي الإجابة عنه بعده.

ردود أفعال المتلقى:

يصف الألوسي بعض ردود أفعال المتلقى التي يصنعها النص؛ ومنها محاولة المتلقى استباق النهاية المتوقعة للنص في ضوء المقدمات التي تصدرت النص، والاستباق أحد أوجه النشاط اللغوي التي تظهر غالباً في الآيات التي تحمل مضمون القصة، ومثال ذلك قصة موسى والخضر - عليهما السلام - في القرآن الكريم التي بدأت بأوصاف الخضر عليه السلام وبعد سماعها "ظمأت النفس لما يصدر منه قبل غليتها وجعل ما صدر عنه مقصوداً بالإفادة لأنه مطلوب للنفس وهي منتظرة إياه ثم بعد أن سمعت ذلك وسكن أوامها" ⁽²⁷⁾ سلك بالكلام مسلكه الأول وقصد بالإفادة حال من سبق الكلام من أوله لشرح حاله ⁽²⁸⁾، فالألوسي هنا يشرح ما تحدّثه الآيات من إثارة للمتلقى فيبقى المتلقى في حالة ترقب للاستجابة التي تؤدي إلى ارتياحه.

²³ البقرة 2.

²⁴ روح المعاني ج 1، ص: 113.

²⁵ روح المعاني ج 6، ص: 155.

²⁶ صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر 149.

²⁷ الأوام بالضم العَطَشُ وقيل خَرَّه وقيل شِدَّةُ العَطَشِ لسان العرب (أوم)

²⁸ روح المعاني ج 8، ص: 321.

ومن ذلك تفسيره لقول الله تعالى "الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"⁽²⁹⁾ متخذاً من التوجيه النحوي للآيات منطلقاً لبيان حركة المتلقي مع النص ذلك المتلقي الذي يعتد بالتوجيه النحوي الذي اختاره والمضي إلى هذه الحركة وفي ذلك يقول "اللائق أن تكون جملة القول - يقصد قولهم "ربنا ما خلقت هذا باطلا" - استثناءً مبيناً لنتيجة التفكير ومدلول الآيات ناشئاً مما سبق فإن النفس عند سماع تخصيص الآيات المنصوبة في خلق العالم بأولي الألباب ثم وصفهم بذكر الله تعالى والتفكير في مجال تلك الآيات تبقى مترقبة لما يظهر منهم من آثارها وأحكامها كأنه قيل: فماذا يكون عند تفكيرهم في ذلك وما يترتب عليه من النتيجة؟ فقيل: يقولون كيت وكيت مما ينبيء عن وقوفهم على سر الخلق المؤدي إلى معرفة صدق الرسل وحقية الكتب الناطقة بتفاصيل الأحكام الشرعية وهذا على تقدير كون الموصول موصولاً نعتاً، {لأولى}"⁽³⁰⁾ وعلى هذا فإن التوجيه النحوي عنده يتعدى حدود ضبط اللسان على الاستعمالات اللغوية المتاحة إلى أهداف جمالية تتعلق بالمتلقي.

كما بين الألوسي حركة المتلقي مع النص؛ إذ يتخذ الألوسي من حركة المتلقي بين الخوف والرجاء منطلقاً لتفضيل قراءة على أخرى؛ فهو يفضل قراءة "مالك" على "ملك" في قوله تعالى "مالك يوم الدين"⁽³¹⁾ لأن فيه "إشارة واضحة إلى الفضل الكبير والرحمة الواسعة والطمع بالمالك من حيث أنه ملك فأقصي ما يرجى من الملك أن ينجو الإنسان منه رأساً براس ومن المالك يرجي ما هو فوق ذلك؛ فالقراءة به أرفق بالمذنبين مثلي فإن سماع "يوم الدين" يقلل أفئدة السامعين، ويشبه ذلك من وجه قوله تعالى "عفا الله عنك لم أذنت لهم"⁽³²⁾.

تعدد أحوال المتلقين:

يشير الألوسي إلى فكرة تعدد أحوال المتلقين وأثره في البعد التفسيري للنص القرآني واختلافهم وفق خلفياتهم الفكرية، فيختلف تلقي العالم بالحكم عن تلقي الجاهل به عن تلقي المتوهم لمعنى خاطئ، ويظهر ذلك في تفسيره لقوله

²⁹ آل عمران: 191

³⁰ روح المعاني ج 2، ص: 370

³¹ الفاتحة 4

³² روح المعاني 1 / 141، ومن الملاحظ أن الألوسي في هذا الشاهد لم يتوقف عند ربط اللفظ بمدلوله من حيث العموم والخصوص، وإنما تعدي ذلك إلى ربطه بالمتلقي، وهذا بعد تداولي نادي به المحدثون من علماء اللسانيات.

تعالى "الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون"⁽³³⁾ إذ يقول "الآية صفة للمؤمنين قبل.. فإذا كان المخاطب جاهلاً بذلك المعنى - يقصد المعنى الشرعي فعل الواجبات وترك السيئات - كان الوصف كاشفاً، وإن كان عالماً كان مادحاً، وإن حمل على ما يقرب من معناه اللغوي كان مخصصاً"⁽³⁴⁾، وهو بذلك لا يشير فقط إلى تعدد المتقين فقط وإنما يشير بدقة إلى ما يقع في نفوسهم من معانٍ كل حسب حالته المعرفية.

ثانياً: النص

أنماط تأثير النص في المتلقي ودور الظواهر اللغوية والبلاغية في ذلك:

يحلل الألويسي الكثير من الظواهر اللغوية والبلاغية في ضوء فكرة التلقي واضعاً فكرة التأثير في المتلقي نصب عينيه ورصد أشكال هذا التأثير من تأثير عاطفي كإثارة الرجاء والتشويق والترهيب والترغيب... وغيرها في نفس المتلقي وتأثير معرفي عقلي بإقناعه وحججه بدفع حججه وإبطال مزاعمه وتأخذ مثلاً على هذا وهو العدول.

فظاهرة مثل العدول يجللها في ضوء التلقي فالعدول عن "الكلام المسوق لمعنى من المعاني وصرفه عن سننه المسلوكة" ينبئ عن اهتمام بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من السامع"⁽³⁵⁾ فالعدول كإجراء لغوي بلاغي يستخدم لإبراز الاهتمام بالقضية المطروحة كما بين بحرك رغبة السامع في الاهتمام بالنص باعتباره أن التلقي يحمل في إحدى جوانبه نشاطاً عاطفياً يتمثل أحياناً في تشوق المتلقي أو حبه لقضية ما أو كرهه لها ولا شك أن هذا الجانب جزء مهم في شخصية الإنسان يراعيها النص القرآني، ويمكن القول أيضاً أن المبدأ الذي طرحه الألويسي يمثل بياناً للعلاقة بين قضيتين أسلوبيتين مختلفتين هما العدول والتلقي إذ اعتبر التلقي الحسن هدفاً للعدول ونتيجة له.

وإذا كان الكلام السابق يحمل شكلاً من أشكال العمومية التقعيدية فإنه لم يأت من فراغ وإنما استنتجته من رصد حركة الخطاب في قوله تعالى "قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ" فقوله تعالى (فإن توليتهم) "خطاب للمنافقين الذين أمر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم ما سمعت وأرد من قبله عز وجل غير داخل في حيز "قُلْ" وفيه تأكيد للأمر السابق والمبالغة في إيجاب الامثال به والحمل عليه بالترتيب والترغيب لما أن

³³ البقرة الآية 3

³⁴ روح المعاني 1 / 181.

³⁵ الألويسي، أبو الفضل شهاب الدين محمود، روح المعاني 10 / 272.

تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعاني وصرفه عن سننه السلوك ينبىء عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من السامع⁽³⁶⁾.

ومن هذا القبيل تتبعه لحركة الإخبار في الآيات قبل قوله تعالى "يأيها الناس اعبدوا ربكم"⁽³⁷⁾، ثم تحوله إلى الخطاب في هذه الآية بعد أن بين سبحانه فرق المكلفين وقسمهم إلى مؤمنين وكفار ومذنبين، وقال في الطائفة الأولى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ}⁽³⁸⁾ وفي الثانية: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ}⁽³⁹⁾ وفي الثالثة: {يُحَادِّثُونَ اللَّهَ}⁽⁴⁰⁾ وشرح ما ترجع إليه أحوالهم دنيا وأخرى فقال سبحانه في الأولى: {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}⁽⁴¹⁾ وفي الثانية: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}⁽⁴²⁾ وفي الثالثة: {فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}⁽⁴³⁾ أقبل عز شأنه عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزأ لهم إلى الإصغاء وتوجيهاً لقلوبهم نحو التلقي وجبراً لما في العبادة من الكلفة بلذيد المخاطبة⁽⁴⁴⁾.

ويحلل الألوسي ظاهرة التقديم والتأخير في ضوء النشاط العاطفي للمتلقي والمتمثل فيما يقوم به النص من بث الإحساس بوجود منفعة للمتلقي عليه أن ينتظرها عند ذلك تبقى نفسه مترتبة للمؤخر على اعتبار أن به منفعة، وعندما تحصل النفس على مرادها يتمكن المعنى الوارد بها في نفسه؛ ففي قوله تعالى "وجعلنا لكم فيها معاش"⁽⁴⁵⁾ يقول "وتقديمهما - يقصد لكم فيها - على المفعول مع أن حقها التأخير عنه كما قال بعض المحققين للاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر؛ فإن النفس عند تأخير ما حقه التقديم لا سيما عند كون المقدم منبئاً عن منفعة للسامع تبقى مترتبة

³⁶ روح المعاني ج 9، ص: 391

³⁷ البقرة: 21

³⁸ البقرة: 3

³⁹ البقرة: 6

⁴⁰ البقرة: 9

⁴¹ البقرة: 5

⁴² البقرة: 7

⁴³ البقرة: 10

⁴⁴ روح المعاني 1 / 281.

⁴⁵ الأعراف 10

لورود المؤخر فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن، وأما تقديم اللام على في فلما أنه المنبىء عما ذكر من المنفعة والاعتناء بشأنه أتم والمسارة إلى ذكره أهم⁽⁴⁶⁾.

وبناء على هذه الرؤية لحل الألوسي كثيرا من مواطن التقديم والتأخير في القرآن الكريم مثل قوله تعالى "الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ"⁽⁴⁷⁾ يقول الألوسي "وتقديم المفعول الغير الصريح لتعجيل المسرة ببيان كون ما يعقبه من منافع المخاطبين أو للتشويق إلى ما يأتي بعده لاسيما بعد الإشعار بمنفعته فيتمكن عند وروده فضل تمكن"⁽⁴⁸⁾.

ويورد الألوسي هدفا آخر للعدول في ضوء التلقي - غير التهيئة الوجدانية للمتلقي - هي التهيئة المعرفية العقلية وجذب الانتباه وعبر عنه بقوله "العدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطاً للسامع"⁽⁴⁹⁾، وهذا مهم جدا إذ لا يتلقى الإنسان كل الرسائل بطريقة نمطية واحدة فمثلا عند استقبال خبر معين قد يكون عنده كمثله المعلومة المألوفة إذا لم يوجه النص المتلقي إلى الاهتمام به وهنا لا تأخذ الرسالة موطن الاهتمام فيصبح اختزانه في ذهنه قابلا للمحو والنسيان، ولكن عندما يلتفت النص انتباه المتلقي إلى خطورة ما يلقي إليه فإنه يأخذه إلى موطن الاهتمام في ذهنه وقد تثير فيه الرضا أو السخط أو التسليم أو الاعتراض، فالتلقي في هذه الحالة يحمل جانبا عقليا من جوانب الشخصية الإنسانية وتقوم الظواهر اللغوية والبلاغية بدورها في تحريك هذا الجانب، ومن أمثلة هذا الجانب العدول عن استخدام اسم الفاعل إلى استخدام المضارع لأجل استحضار الصورة في ذهن المتلقي؛ ففي قوله تعالى "إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ"⁽⁵⁰⁾ يقول الألوسي "كان الأصل أن يؤتى بصيغة اسم الفاعل أسوة أمثاله في الآية إلا أنه عدل عن ذلك إلى المضارع في هذا الوصف وحده إرادة لتصوير إخراج الحي من الميت واستحضاره في ذهن السامع وذلك إنما يتأتى بالمضارع دون اسم الفاعل والماضي"⁽⁵¹⁾.

⁴⁶ روح المعاني ج 4، ص: 326

⁴⁷ البقرة 22

⁴⁸ روح المعاني ج 1، ص: 190

⁴⁹ روح المعاني ج 1، ص: 91

⁵⁰ سورة الأنعام 95

⁵¹ روح المعاني، ج 4، ص: 214

ومن الأنشطة العقلية التي تثيرها الظواهر البلاغية واللغوية في المتلقي التأويل باستنتاج المتلقي المحذوف من النص، أو استنتاج المعاني غير الصريحة في النص والكامنة خلف البناء اللغوي الظاهري للنص، والتأويل في اللغة من الفعل "أول" (أول) الأول الرجوع آل الشيء يُؤُول أولاً ومالاً رَجَعَ وأَوَّل إليه الشيء رَجَعَهُ وأَلَتْ عن الشيء ارتددت⁽⁵²⁾، فالتأويل على هذا إرجاع النص أو الرسالة اللغوية إلى دائرة المعنى الصريح وقد خرجت عنه لدواع لم يكن المتلقي قد وقف عليها عند استقبالها لأول مرة.

والحذف عنده مبني على الثقة في قدرة السامع على تأويل المحذوف وهو بذلك يؤكد على دور المتلقي في استنتاج الدلالة عندما يعايش النص ويتمثله، والدلالة عنده - عادة - ليست نهائية وخاصة في المواضيع التي يراد بها التعجيب والتهويل؛ ففي فضل حذف الخبر في قوله تعالى "الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل"⁽⁵³⁾ يقول الألوسي "وإنما حذف - أي الخبر - لتذهب نفس السامع كل مذهب"⁽⁵⁴⁾، فهو يرى أنه لو ذكر الخبر لتحدد المعنى عند المتلقي، وترك الذكر يفتح آفاقاً جديدة للحكم على الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل بأن يقال مثلاً "مبغوضون أو أحقاء بكل ملامة ونحو ذلك"⁽⁵⁵⁾، وذلك توضيح لقوله "لتذهب نفس السامع كل مذهب".

وبالمبدأ نفسه يفسر الحذف في قوله تعالى "ولو ترى إذ وقفوا على النار" إذ يقول "لو شرطية على أصلها وجوابها محذوف لتذهب نفس السامع كل مذهب؛ فيكون أدخل في التهويل"⁽⁵⁶⁾، وهذه الطريقة التي يتبعها النص وسيلة ناجحة في جعل المتلقي أكثر إيجابية في التفاعل مع النص.

والنص يدعو المتلقي إلى القيام بالعديد من الأنشطة التي تساعده في عملية التأويل لاستنتاج إحياءات النص ومضامينه الخفية ومنها الاسترجاع؛ فالمتلقي يسترجع مضامين لها علاقة بالنص، وصاحب النص على ثقة بأن المتلقي لديه هذه القدرة على استرجاع تلك المضامين المشابهة للنص، وهذه الثقة التي ذكرها المفسر عبر عنها التداوليون

⁵² لسان العرب (أول)

⁵³ سورة الحديد 24

⁵⁴ روح المعاني 3 / 401.

⁵⁵ السابق 3 / 401.

⁵⁶ السابق 4 / 464.

بمصطلح الافتراض المسبق إذ إنه "في أي تواصل لساني ينطلق الشركاء من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها"⁽⁵⁷⁾، ولا شك أن هذه المعطيات هي التي تشكل الثقة لدى المتكلم تجاه المتلقي.

وعلى ذلك يوجه الألوسي ترك التفصيل إلى الثقة في فهم السامع وقدرته على رد الكلام إلى أصله الذي اعتاد عليه السامع وشكل خلفية ثقافية لديه تحرك فهمه للنص؛ ففي قوله تعالى "وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى"⁽⁵⁸⁾ يقول الألوسي "والضمير لأهل الكتاب لا لكثير منهم - كما يتبادر من العطف والمراد بهم اليهود والنصارى، وكأن أصل الكلام قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى فلف بين هذين القولين، وجعلاً مقولاً واحداً اختصاراً وثقة بفهم السامع أن ليس المقصد أن كل واحد من الفريقين يقول هذا القول المردد"⁽⁵⁹⁾.

ويقترّب من رؤية الألوسي رؤية المحدثين من علماء اللسانيات حين يرون أن "الحصيلة الدلالية للملفوظ هي جماع الدلالة اللسانية للملفوظ ذاته وبعض المعارف المشتركة بين المخاطبين"⁽⁶⁰⁾ ورؤية الألوسي أدقّ إذ في التطبيق العملي للنصوص عادة لا تكون الدلالة الأصلية للملفوظ هي المطلوبة عندئذ لا تكون جزءاً من الجماع المذكور سابقاً، وعلى ذلك يمكن القول أن رؤية الألوسي لا تقتضي الجمع بقدر ما تقتضي التفاعل الذي قد يبقى المعنى البدائي الحرفي كدلالة نهائية للملفوظ أو تنحو به منحى آخر يتضمن دلالة ضمنية يستنتجها المتلقي.

ويشير الألوسي إلى دور دلالة الاستلزام في التأويل وهو أحد أنواع الافتراضات المسبقة، وذلك في تفسيره لقوله تعالى "وأتموا الحج والعمرة لله"⁽⁶¹⁾ يقول "أي اجعلوها تامين إذا تصديتم لأدائهما لوجه الله تعالى فلا دلالة في الآية على أكثر من وجوب الإتمام بعد الشروع فيها وهو متفق عليه بين الحنفية والشافعية رضي الله تعالى عنهم، فإن إفساد الحج والعمرة مطلقاً يوجب المضي في بقية الأفعال والقضاء، ولا تدل على وجوب الأصل، والقول بالدلالة بناءً

⁵⁷ صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب 30.

⁵⁸ سورة البقرة 111

⁵⁹ روح المعاني 1/ 543 ومثله 1/ 543 و 2/ 93 و 11/ 685.

⁶⁰ الحباشة، صابر، التداولية والحجاج 41

⁶¹ البقرة 196

على أن الأمر بالإتمام مطلقاً يستلزم الأمر بالأداء لما تقرر من أن ما لا يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب ليس بشيء لأن الأمر بالإتمام يقتضي سابقة الشروع فيكون الأمر بالإتمام مقيداً بالشروع⁽⁶²⁾.

أشار الألوسي إلى مفهوم الاستلزام بأنه معنى لا يفهم من الدلالة الصريحة للفظ⁽⁶³⁾ وإنما من سياق الحديث ويظهر ذلك في تفسيره لقول الله تعالى "إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا"⁽⁶⁴⁾ يقول " {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} "⁽⁶⁵⁾ أي على ما يؤدي إليه مذهبهم وتقتضيه آراؤهم لا أنهم يصرحون بذلك كما ينبي عنه قوله تعالى: {وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ} "⁽⁶⁶⁾ في الإيمان بأن يؤمنوا به عز وجل ويكفروا برسله عليهم الصلاة والسلام، لكن لا يصرحون بالإيمان به تعالى وبالكفر بهم قاطبة، بل بطريق الاستلزام كما يحكيه قوله تعالى: "وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ"⁽⁶⁷⁾ أي نؤمن ببعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ونكفر ببعضهم كما فعل أهل الكتاب، وما ذلك إلا كفر بالله تعالى وتفریق بين الله تعالى ورسله، لأنه عز وجل قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما من نبي إلا وقد أخبر قومه بحقية دين نبينا صلى الله عليه وسلم فمن كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل وبالله تعالى أيضاً⁽⁶⁸⁾.

أشارت الدراسات التداولية إلى ما يسمى بالأقوال المضمرة "وهي ترتبط بوضعية الخطاب ومقامه إذ المعلومات التي يتضمنها الخطاب تبقي رهن خصوصيات سياق الحديث، إذا فهي تعود لأسباب مقامية"⁽⁶⁹⁾، وقد أشار الألوسي إلى الفكرة نفسها وعبر عنها بالفحوى، ومن العجيب أن يشترط الألوسي للقول بالفحوى "معونة المقام"⁽⁷⁰⁾

⁶² تفسير الألوسي روح المعاني، ج 1، ص: 475

⁶³ أطلق التداوليون على المعنى الصريح المعنى القضوي، التداولية عند العرب 35.

⁶⁴ سورة النساء 150

⁶⁵ سورة النساء 150

⁶⁶ سورة النساء 150

⁶⁷ سورة النساء 150

⁶⁸ روح المعاني ج 3، ص: 179

⁶⁹ التداولية عند العرب 32.

⁷⁰ روح المعاني ج 1، ص: 75، ج 1، ص: 347

وكذلك استنتج أن تؤيد الفحوى بأدوات أخرى غير المقام مثل العناصر السياقية الداخلية مثل الجملة الاعتراضية التي يؤتى بها "لتأكيد فحوي ما تقدمها"⁽⁷¹⁾ ومن الوسائل التي ذكرها الألوسي لاستبيان المعاني المضمرة القياس بالاقضاء ففي قوله تعالى "فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ"⁽⁷²⁾ يقول "والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياساً جلياً لأنه يفهم بطريق الأولى ويسمى مفهوم الموافقة ودلالة النص وفحوى الخطاب، وقيل يدل على ذلك حقيقة ومنطوقاً في عرف اللغة كقولك: فلان لا يملك النقيير والقطمير فإنه يدل كذلك على أنه لا يملك شيئاً قليلاً أو كثيراً"⁽⁷³⁾.

وإذا كان النص قد وكل إلى المتلقي تأويل المحذوف مما يتيح له دوراً في استنتاج الدلالة فإنه أيضاً قد يعتمد على استخدام المفردات ذات المعاني العامة، ويرجع الألوسي تفضيلها إلى التأثير في المتلقي، إذ تحديد معنى خاص يحدد مجال التأثير بهذا المعنى أما استخدام الكلمات التي تحمل معاني عامة يكون له أثر أعظم فلا تقف نفس السامع عند معنى معين وهذا يتيح للمتلقي مجالاً دلالياً أوسع في استنتاج الدلالات المختلفة، وإلي ذلك يشير الألوسي في حديثه عن سبب تفضيل التعبير بـ "يوم الدين" على التعبير بـ "يوم القيامة" في سورة الفاتحة يقول "وإنما قال مالك يوم الدين ولم يقل يوم القيامة مراعاة للفاصلة وترجيحاً للعموم؛ فإن الدين بمعنى الجزاء يشمل جميع أحوال القيامة من ابتداء النشور إلى السرد الدائم بل يكاد يتناول النشأة الأولى بأسرها على أن يوم القيامة لا يفهم منه الجزاء مثل يوم الدين ولا يخلو اعتباره عن لطف، وأيضاً للدين معانٍ شاع استعماله فيها كالطاعة والشرعة فتذهب نفس السامع إلى كل مذهب سائغ"⁽⁷⁴⁾.

وللكلمات التي تحمل دوال عامة لها فوائد أخرى تخص الحالة النفسية للمتلقي فقد يكون في التصريح مدعاة لخنجل المتلقي وهو ما قد يجعله عازفاً عن تلقي النص؛ ففي قول الله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا"⁽⁷⁵⁾ يقول الألوسي: "إنما ذكر وأسند المجيء إليه دون المخاطبين تفادياً عن التصريح بنسبتهم إلى ما يستحي منه أو يستهجن التصريح به والفعل عطف على {كُنْتُمْ}"⁽⁷⁶⁾.

⁷¹ روح المعاني ج 7، ص: 164

⁷² سورة الإسراء 23

⁷³ روح المعاني ج 8، ص: 55

⁷⁴ روح المعاني 1 / 143.

⁷⁵ سورة النساء 43

⁷⁶ روح المعاني ج 3، ص: 41

ويصف الألوسي ما يقع في نفس السامع وصفا دقيقا عندما يتدرج النص من التأكيد على حدوث المنفعة ثم وقوع المنفعة نفسها؛ إذ يتوالى السرور عليه مرتين كأن يبدأ النص بالوعد ثم بإنجاز الوعد كما في قوله تعالى "فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك" ⁽⁷⁷⁾ يقول الألوسي "وجاء هذا الوعد مع إضمار القسم مبالغة في وقوعه لأنه يؤكد مضمون الجملة المقسم عليها، وجاء قبل الأمر لفرح النفس بالإجابة ثم بإنجاز الوعد؛ فيتوالى السرور مرتين" ⁽⁷⁸⁾.

ويشير الألوسي إلى دور بعض الظواهر اللغوية في النص في تهيئة المتلقي لاستقبال ما كان يترقبه وإعلامه للاستعداد له، ومن ذلك توجيهه لتكرار قوله تعالى "ما أصحاب اليمين" ⁽⁷⁹⁾ بقوله "ولعلها عليه أنه لما عقب الأولين بما يشعر بأن لأحوال كل تفاصيل متروكة أعيد ذلك للإعلام بأن الأحوال العجيبة هي هذه فلتسمع" ⁽⁸⁰⁾.

ويشير أيضا إلى دور الاستفهام في تنبيه المتلقي على خطورة ما سيأتي من أمور عليه أن يترقبها، ومن ذلك الدور الذي يقوم به الخطاب والاستفهام في قوله تعالى "قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظْبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ" ⁽⁸¹⁾ من استدعاء إقبال المتلقين "على تلقيه من الجملة الاستفهامية المشوقة إلى المخبر به، والتنبئة المشعرة بكونه أمرا خطرا لما أن النبأ هو الخبر الذي له شأن وخبر" ⁽⁸²⁾.

ويسلك النص القرآني طرقا كثيرة لإقناع ⁽⁸³⁾ المتلقي مستخدما فيها العديد من الوسائل اللغوية تنبه إليها الألوسي في تفسيره فالنص القرآني يحمل خطابا منظما يقوم في المتلقي سلوكياته ومواقفه الدينية والدنيوية؛ فهو يدفعه إلى تبني موقف أو التخلي عن موقف آخر حتى وإن لم يكن الخطاب موجها بشكل مباشر إلى المتلقي فإن المتلقي الفطن عليه أن يستنتج النداء الكامن في النص الذي به صلاح أمره وتلك الوسائل الإقناعية تمثل "قوة ضاغطة على المتلقي وتمثل

77 البقرة 144

78 روح المعاني 2 / 13.

79 الواقعة 27

80 روح المعاني ج 14، ص: 133

81 سورة المائدة 60

82 روح المعاني ج 3، ص: 341 ومثله 12 / 238.

83 عرف حازم القرطاجني الإقناع بأنه "حمل النفوس على فعل شئ أو اعتقاده أو التخلي عن فعله" منهاج البلغاء وسراج الأدباء 106، ويعتقد الباحث أن الإقناع - بشكل عام - يقوم على تبصير الآخر بالرأي الذي يوصل إليه ويتم الاقتناع بمجرد اعتقاد الطرف الآخر بصحة الرأي أو الفكرة.

في عملية الإقناع بوسائلها العقلية التي من خلالها يسلم المتلقي قياده للفكرة الموجهة إليه، كما تتمثل فيها عملية الإمتاع التي تلون الكلام بكثير من الموصفات العاطفية الوجدانية بحيث تكون هناك مزاجية بين الجانب الإقناعي والجانب الإمتاعى⁽⁸⁴⁾.

فمن طرق الإقناع في القرآن الكريم: ترتيب المعاني بما يكون كفيلاً بترتيب ذهن المتلقي المفضي إلى إقناعه وثبوت مضمون الرسالة في ذهنه، فمن ذلك تقديم المبهم على المعلوم الذي يفسره كما في قوله تعالى "وَمَا هُوَ بِمَرْحُومٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ"⁽⁸⁵⁾؛ "فهو ضمير مبهم يفسره البدل فهو راجع إليه لا إلى شيء متقدم مفهوم من الفعل، والتفسير بعد الإبهام ليكون أوقع في نفس السامع، ويستقر في ذهنه كونه محكوماً عليه بذلك الحكم"⁽⁸⁶⁾.

ويدرك الألوسي أن من عوامل إقناع المتلقي الترتيب بداية مما يتعقله المتلقي، ثم يتبعه بما يستغربه كما في قوله تعالى "فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض"⁽⁸⁷⁾، يقول الألوسي "بدأ بما يتعقله السامع أولاً وهو كينونة الشيء في صخرة وهو ما صلب من الحجر وعسر الإخراج منه ثم أتبعه بالعالم العلوي وهو أغرب للسامع ثم أتبعه بما يكون مقر الأشياء للشاهد وهو الأرض"⁽⁸⁸⁾.

ومنه أيضاً تعليقه على التسلسل في الآيات من قوله تعالى "فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ"⁽⁸⁹⁾ حتى قوله تعالى "فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ"⁽⁹⁰⁾ إذ يقول "إن ترتيب هذا الحكم ونظيره على الأفعال دون البزوغ والظهور من ضروريات سوق الاحتجاج على هذا المساق الحكيم فإن كلاً منهما وإن كان في نفسه انتقلاً منافياً لاستحقاق معروضه للربوبية قطعاً لكن لما كان الأول حالة موجبة لظهور الآثار والأحكام ملائمة لتوهم الاستحقاق في الجملة رتب عليه الحكم الأول أعني

⁸⁴ عبد المطلب، محمد، العلامة والعلامية، ص 120.

⁸⁵ البقرة 96

⁸⁶ روح المعاني 1/ 500.

⁸⁷ سورة لقمان 16

⁸⁸ روح المعاني 11 / 346.

⁸⁹ الأنعام 76

⁹⁰ الأنعام 78

{ هذا رَبِّي } على الطريق المذكورة، وحيث كان الثاني حالة مقتضية لانطئاس الآثار وبطلان الأحكام المنافين للاستحقاق المذكور منافاة بينة يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد رتب عليها ما رتب⁽⁹¹⁾.

ومن أساليب الإقناع في القرآن الكريم التي تنبه لها الألوسي التنبيه على التناقض بين ما يدعيه المخاطب وسلوكه يقول " { قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ } { أمر للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك تبكيًا لهم حيث قتلوا الأنبياء مع ادعاء الإيمان بالتوراة وهي لا تسوّغه، ويحتمل أن يكون أمرًا لمن يريد جداولهم كائنًا من كان }⁽⁹²⁾.

ومن الإشارات على تناقض المخاطب المنكر أيضا قوله تعالى " { إِنَّكَ كَاذِبٌ كَلِمًا } { كَذَّابٌ لَوْ أَنَّ صَبْرَنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا }⁽⁹³⁾ يقول الألوسي " إن كلامهم قد تناقض لإضرابهم وتخييرهم فإن الاستفهام السابق دال على الاستحقاق وهذا دال على قوة حجته وكمال عقله صلى الله عليه وسلم ففيها حكاية سبجانه عنهم تحميق لهم وتجهيل لاستهزائهم بما استعظموه⁽⁹⁴⁾.

ومن تلك الأساليب أيضا تعجيز المخاطب عن الإتيان بدليل على ما يعتقد حينئذ يكون لزاما عليه تصديق الرسالة، ففي قوله تعالى " قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَتَتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ⁽⁹⁵⁾ يقول " { اتوني بكتاب } إلى آخره تبكيته لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلي بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقلي فهو من جملة القول أي اتوني بكتاب إلهي كائن { مَنْ قَبْلُ هذا } { الكتاب أي القرآن الناطق بالتوحيد وإبطال الشرك دال على صحة دينكم } أو إثارة مَنْ عِلْمٍ { أي بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين شاهدة باستحقاقهم العبادة⁽⁹⁶⁾.

⁹¹ روح المعاني ج 4، ص: 191

⁹² روح المعاني ج 1، ص: 324

⁹³ سورة الفرقان 42

⁹⁴ روح المعاني ج 10، ص: 23

⁹⁵ سورة الأحقاف 4

⁹⁶ روح المعاني ج 13، ص: 163

ومن ذلك أيضا قوله تعالى "أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"⁽⁹⁷⁾ يقول الألوسي " وقوله تعالى: { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ } أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيته أي هاتوا برهاناً عقلياً أو نقلياً يدل على أن معه عز وجل إلهاً، وقيل: أي هاتوا برهاناً على أن غيره تعالى يقدر على شيء مما ذكر من أفعاله عز وجل، وتعقب بأن المشركين لا يدعون ذلك صريحاً ولا يلتزمون كونه من لوازم الألوهية وإن كان منها في الحقيقة فمطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم مما لا وجه له، وفي إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من إيهام أن لهم برهاناً وأني لهم ذلك، وقيل: إن الإضافة لزيادة التبكيته كأنه قيل: نحن نقنع منكم بما تعدونه أنتم أيها الخصوم برهاناً يدل على ذلك وإن لم نعهده نحن ولا أحد من ذوي العقول كذلك، مع هذا أنتم عاجزون عن الإتيان به { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } أي في تلك الدعوي، واستدل به على أن الدعوي لا تقبل ما لم تنور بالبرهان"⁽⁹⁸⁾.

والقريب من ذلك التنبيه على فساد أسباب اقتناع المتلقي بالفكرة المضادة للرسالة المطروحة وفي ذلك قطع الطرق عليه لتبرير مواقفه، ومن ذلك قوله تعالى " مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"⁽⁹⁹⁾ يقول الألوسي " وجوز أن يكون سرد هذه الجمل على هذا الطرز لسد الطرق في توجيه صحة عبادة الأصنام عليهم أحكام سد فلينهم إن قالوا: إن الله تعالى قد أنزل حجة في ذلك ردوا بقوله: { ما أنزل الله بها من سلطان } وإن قالوا: حكم لنا بذلك كبراًؤنا ردوا بقوله: { إن الحكم إلا لله } وإن قالوا: حيث لم ينزل حجة في ذلك ولم يكن حكم لغيره بقي الأمر موقوفاً إذ عدم إنزال حجة تدل على الصحة لا يستلزم إنزال حجة على البطلان ردوا بقوله: { أمر ألا تعبدوا إلا إياه }"⁽¹⁰⁰⁾.

ومن وسائل الإقناع أيضاً بيان سبب تمسك المنكرين بالحجج الواهية وانصرافهم عن البحث في صحة هذه الحجج وفي ذلك يقول الألوسي " { مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ }"⁽¹⁰¹⁾ استئناف مبين لذلك دال على أن التقليد فيما بينهم ضلال قديم لأسلافهم وأن متقدميهم

⁹⁷ سورة النمل 64

⁹⁸ روح المعاني ج 10، ص: 219

⁹⁹ سورة يوسف 40

¹⁰⁰ روح المعاني ج 6، ص: 435

¹⁰¹ سبأ 34

أيضاً لم يكن لهم سند منظور إليه وتخصيص المترفين بتلك المقالة للإيذان بأن النعم وحب البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد⁽¹⁰²⁾.

وقد يتخذ النص القرآني من التعريض وسيلة لبيان فساد اعتقاد المنكرين، ويبين الألوسي فائدة التعريض دون التصريح في هذا المقام بأن التصريح قد يحمل الإنسان على المكابرة والعناد أما التعريض يعيد الإنسان إلى نفسه حينها قد يستنتج خطأه وكون العيب من جهته، فيقول الألوسي " { قُلْ هَلْ أَتَّبِعُكُمْ بِشَرِّ مَنْ ذَلِكَ } تبيكت لأولئك الفجرة أيضاً بيان أن الحقيق بالنقم والعيب حقيقة ماهم عليه من الدين المحرف، وفيه نعي عليهم على سبيل التعريض بجناياتهم وما حاق بهم من تبعاتها وعقوباتها، ولم يصرح سبحانه لئلا يحملهم التصريح بذلك على ركوب متن المكابرة والعناد، وخاطبهم قبل البيان بما ينبيء عن عظم شأن المبين، ويستدعي إقبالهم على تلقيه من الجملة الاستفهامية المشوقة إلى المخبر به، والتنبئة المشعرة بكونه أمراً خطراً لما أن النبأ هو الخبر الذي له شأن وخطر، والإشارة إلى الدين المتقوم لهم، واعتبرت الشرية بالنسبة إليه مع أنه خير محض منزّه عن شائبة الشرية بالكلية مجارة معهم على زعمهم الباطل المنعقد على كمال شريته، وحاشاه ليثبت أن دينهم شر من كل شر، ولم يقل سبحانه بأنقم تنصيصاً على مناط الشرية لأن مجرد النقم لا يفيدها ألبة لجواز كون العيب من جهة العائب⁽¹⁰³⁾.

ومن طرق الإقناع في القرآن الكريم التي تنبه إليها الألوسي ما يسميه نقاد اللسانيات بقياس الخلف وهو "إثبات الأمر ببطلان نقيضه"⁽¹⁰⁴⁾ ويعبر الألوسي عن هذا المعنى بعبارة دقيقة حين يقول " قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا.... إشارة إلى برهان التنازع كقوله تعالى: { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا }⁽¹⁰⁵⁾ وذلك بتصوير قياس استثنائي استثنى فيه نقيض التالي ليتنج نقيض المطلوب⁽¹⁰⁶⁾.

ويشير الألوسي إلى دور استخدام أدوات التأكيد في ذلك وتوظيفها حسب ما يحتاجه إقناع المتلقي فالأمر المبهمة للمتلقي عادة ما تحتاج إلى التأكيد أكثر من الأمور المعلومة لديه ويشاهد آثارها ومثال ذلك قوله تعالى "ولقد

¹⁰² روح المعاني ج 13، ص: 75

¹⁰³ روح المعاني ج 3، ص: 341

¹⁰⁴ العمري، محمد، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية 69 وما بعدها.

¹⁰⁵ الأنبياء: 22

¹⁰⁶ روح المعاني ج 8، ص: 79 ومنه أيضاً قوله تعالى "وما أنتم له بخازنين" يقول الألوسي "نفي سبحانه عنهم ما أثبتته لنفسه" روح المعاني 44/8

اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين" (107) يقول الألوسي "التأكيد بأن واللام لما أن الأمور الأخروية خفية عند المخاطبين فحاجتها إلى التأكيد أشد من الأمور التي تشاهد آثارها" (108).

ويشير الألوسي وسبلة إقناعية يستخدمها النص القرآني في إقناع المتلقي وهي إعادة توجيه المتلقي إلى ما فيه صلاح له ففي قوله تعالى "يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج" (109) يذكر الألوسي أن من احتمالات توجيه الآية كونها من أسلوب الحكيم "ويسمي أيضا القول الموجب وهو تلقي السائل بغير ما يتطلبه بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأول بحاله.. فيكون في الجواب إشارة إلى أن الأولى على تقدير وقوع السؤال أن يسألوا عن الحكمة لا عن السبب لأنه يتعلق به صلاح معاشهم ومعادهم" (110).

أشار الألوسي إلى بعض مراحل الإقناع، فمنها كما سبق الإشارة إليه التنبيه على أهمية الرسالة للمتلقي، ومنها أيضا التنبيه على النفع الذي تحمله الرسالة للمتلقي وبعد اقتناع المتلقي بالحجج المقدمة بوجه النص إلى أنه لم تعد هناك أعذار له فيحذره من تضييع الرسالة ومثال ذلك "إعادة الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام الإنكاري مع الجملة الاسمية مرتبا على ما تقدم من أصناف الصوارف، فقال جل شأنه: {فَهَلْ أَنتُم مُّتَّبِعُونَ} (111) إيداناً بأن الأمر في الردع والمنع قد بلغ الغاية وأن الأعذار قد انقطعت بالكلية حتى إن العاقل إذا خلى ونفسه بعد ذلك لا ينبغي أن يتوقف في الانتهاء" (112).

ومن ذلك توجيهه للاستفهام في قوله تعالى "فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُ" (113) يقول " {ءَأَسْلَمْتُمْ} متبعين لي كما فعل المؤمنون فإنه قد جاءكم من الآيات ما يوجهه ويقتضيه أم أنتم على كفركم بآيات الله تعالى وإصراركم على العناد- وهذا كما تقول إذا لخصت لسائل مسألة ولم تدع من

107 سورة البقرة 130

108 روح المعاني ج 1، ص: 386

109 البقرة 189

110 روح المعاني 2 / 105.

111 المائدة: 91

112 روح المعاني ج 4، ص: 17

113 سورة آل عمران 20

طرق البيان مسلماً إلا سلكته - فهل فهمتها؟ على طرز {فهل أنتم متتهون} ⁽¹¹⁴⁾ إثر تفصيل الصوارف عن تعاطي ما حرم تعاطيه ⁽¹¹⁵⁾.

وقريب من ذلك التنبيه على زوال المانع من الاقتناع وقيام الموجب للتصديق، إذ بعد زوال المانع يجب على المتلقي المنكر الإسراع بالإذعان عند ذلك يأتي دور العناصر اللغوية الدالة على السرعة مثل الفاء المقترنة بهل الاستفهامية كما في تفسير قوله تعالى "فهل أنتم مسلمون" يقول الألوسي "أي داخلون في الإسلام إذ لم يبق بعد شائبة شبهة في حقيقته وفي بطلان ما أنتم فيه من الشرك، فيدخل فيه الإذعان بكون القرآن من عند الله تعالى دخولاً أولاً، أو منقادون للحق الذي هو كون القرآن من عند الله تعالى وتاركون ما أنتم عليه من المكابرة والعناد، وفي هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال المانع، ولهذا جيء بالفاء، وفي التعبير بـ "مسلمون" دون "تسلمون" تأييد لما يقتضيه ترتيب ما ذكر على ما قبلها من وجوبه بلا مهلة" ⁽¹¹⁶⁾.

ضبط الاستقبال:

أشار الألوسي كثيراً إلى دور الظواهر اللغوية البلاغية في دفع توهم المتلقي مما يعيد المتلقي على الطريق الصحيح للفهم، فالبديل في قوله تعالى "قَالُوا تَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" ⁽¹¹⁷⁾ فائدته "دفع التوهم الناشئ من ذكر الإله مرتين" ⁽¹¹⁸⁾، فعندما يستمع المتلقي إلى مقدمة الآية فإنه قد يتوهم أن إله يعقوب غير إله آبائه وذكر البديل (إله واحد) دفع هذا التوهم.

"ولكن" في قوله تعالى "لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالين فيها هي للاستدراك وهو رفع توهم ناشئ من السابق وعند علماء المعاني لقصر القلب ورد اعتقاد المخاطب، وتوجيه الآية... أنه لما وصف الكفار بقلة نفع تقلبهم في التجارة وتصرفهم في البلاد لأجلها جاز أن يتوهم متوهم أن التجارة من حيث هي مقتضية لذلك فاستدرك أن المتقين وإن أخذوا في التجارة لا يضرهم ذلك وأن لهم ما وعدوا به" ⁽¹¹⁹⁾.

¹¹⁴ المائدة: 91

¹¹⁵ روح المعاني، ج 2، ص: 105

¹¹⁶ روح المعاني، ج 6، ص: 224

¹¹⁷ البقرة 133.

¹¹⁸ روح المعاني 1 / 590.

¹¹⁹ روح المعاني 3 / 236.

ويرجع الألوسي فائدة الاعتراض إلى دفع توهم المتلقي وضبط مسار تلقيه للنص وهو المفهوم من قوله "وقوله تعالى (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة)"⁽¹²⁰⁾ من كلامه تعالى اعتراض بين القول ومقوله الذي هو (يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما)⁽¹²¹⁾ لثلا يتوهم من مطلع كلامه أن تمنيه المعية للنصرة والمظاهرة حسبما يقتضيه ما في البين من مودة بل للحرص على حطام الدنيا"⁽¹²²⁾، ومثال ذلك أيضا تنبيهه على أهمية تقييد الإحياء بالإذن في قوله تعالى "وأحيي الموتى بإذن الله"⁽¹²³⁾، وربط ذلك بدفع توهم المتلقي، يقول "وقيد الإحياء بالإذن.. لأنه فعل خارق عظيم يكاد يتوهم منه ألوهية فاعله لأنه ليس من جنس أفعال البشر"⁽¹²⁴⁾.

ومن إشارات إلى دور الاعتراض في ضبط مسار الفهم عند المتلقي الذي قد يتوجه - بدون الاعتراض - وجهة لا يريد النص إشارته إلى دور الاعتراض المتمثل في قوله تعالى "وكذلك مكنا ليوسف"⁽¹²⁵⁾ فهو "اعتراض جئ به أنموذجا للقصة ليعلم السامع من أول الأمر أن ما لقيه عليه السلام من الفتنة التي ستحكي بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه - عليه السلام - محسن في أعماله لم يصدر عنه ما يخل بنزاهته"⁽¹²⁶⁾، وهو بذلك يشير إلى قدرة النص على تحديد مسار توقع السامع وتبنيته تهيئة سليمة لاستقبال النص بشكل صحيح ليحول بذلك بينه وبين الالتباس.

ويرجع الألوسي العدول عن الصيغة الصريحة - التي اعتاد المتلقي على استخدامها لأداء معنى معين - إلى صيغة أخرى غير صريحة تؤدي المعنى نفسه إلى قدرة الصيغة البديلة على دفع توهم المتلقي الناتج عن احتمال الصيغة الأولى لمعان أخرى لا يقصدها النص ومن ذلك العدول عن صيغة الأمر (زكوا) إلى (وآتوا الزكاة) لثلا يتوهم المتلقي "إن الأمر

¹²⁰ سورة النساء 73

¹²¹ سورة النساء 73

¹²² روح المعاني 3 / 473.

¹²³ سورة آل عمران 49

¹²⁴ روح المعاني 2 / 491.

¹²⁵ سورة يوسف 21

¹²⁶ روح المعاني 7 / 287.

بتزكية النفس⁽¹²⁷⁾، ومثال ذلك أيضا إرجاعه عدم الاكتفاء بعطف (ما) على الفاكهة وقدم الخبر (لهم) في قوله تعالى

"لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون"⁽¹²⁸⁾ لثلاث يتوهم المتلقي كونها عبارة عن توابع الفاكهة ومتمماتها⁽¹²⁹⁾.

ويشير إلى دور الوصف في دفع توهم المتلقي وقلب المعنى الذي يتوهمه ففي قوله تعالى "انطلقوا إلى ظل ذي

ثلاث شعب"⁽¹³⁰⁾ قد يفهم المتلقي أن الظل المذكور هو مزية يتمتع بها الكفار وليست تعريضا واستهزاء بهم ويزيل هذا

الوهم ويعيد توجيه المعنى في ذهنه الوصف (لا ظليل ولا يغني من اللهب)⁽¹³¹⁾ فنفي الاحتمال بذلك وفيه تعريض بأن

ظلمهم غير ظل المؤمنين⁽¹³²⁾ فقبل الوصف تعدد الاحتمالات للمعنى في ذهن المتلقي وبالوصف تبديد المعاني التي لا

توافقه ويبقى في ذهنه المعنى المطلوب.

ويؤدي الاستثناء دورا في تخصيص الحكم في ذهن المتلقي ودفع توهمه بالتعميم أو استواء الحكم على الجميع أو

قياسه على أحكام أخرى سابقة تحدد اتجاه المتلقي إلى اتجاه لا يريده النص كما في قوله تعالى "إلا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات"⁽¹³³⁾ يقول فيه الألوسي "استثناء متصل من ضمير رددناه العائد على الإنسان.. والكلام على معنى

الاستدراك كأنه قيل "لكن الذين آمنوا لهم أجر.. إلخ. وهو لدفع ما يتوهم من أن التساوي في أرذل العمر يقتضي

التساوي في غيره"⁽¹³⁴⁾.

وللسياق دور كبير في تحديد الدلالة وتبديد الدلالات الأخرى المتوهمه حين ينظر المتلقي إلى السياق ويتنبه إلى

ما يوافق من الدلالات، ويشير الألوسي إلى ذلك عند حديثه عن نزول القرآن منجما فيقول "ولذلك فوائد غير ما ذكر

أيضا، منها معرفة الناسخ المتأخر نزوله من المنسوخ المتقدم نزوله المخالف لحكمه ومنها انضمام القرائن الحالية إلى

¹²⁷ روح المعاني 602/13 ومثله 712/13.

¹²⁸ سورة يس 57

¹²⁹ روح المعاني 51/12.

¹³⁰ المرسلات 30

¹³¹ المرسلات 31

¹³² روح المعاني 268/14.

¹³³ التين 6

¹³⁴ روح المعاني 549/14.

الدلالات اللفظية فإنه يعين على معرفة البلاغة لأنه بالنظر إلى الحال يتنبه السامع لما يطابقها ويوافقها إلى غير ذلك⁽¹³⁵⁾، وتأكيد الألوسي على ما يقوم به السامع من الجمع بين القرائن المقامية والدلالات اللفظية للمقال يقترب إلى حد كبير مما سباه علماء اللسانيات بـ"النظرية الدلالية ذات المقلاع" التي تلخص في المخطط التالي:

المعني الاستلزامي الخاص (المقام) + صيغة لغوية (المقال) = المعنى المقتضي المنشود⁽¹³⁶⁾، ووفق هذه الرؤية يمكن للمتلقي أن ينتقل من المعنى الحرفي البدائي إلى الدلالة الضمنية للملفوظ وهو انتقال من المكون اللساني إلى المكون غير اللساني، وتأكيد الألوسي على ما يتنبه له السامع من المطابقة والموافقة في العبارة السابقة صاغه علماء التداولية بما يسمى بمبدأ المناسبة، وهو يعني "أن تأويل الأقوال يقوم على استدلالات تستند إلى السياق وتفضي إلى نتائج"⁽¹³⁷⁾.

وفي ضوء تحليلات الألوسي السابقة وغيرها الكثير في تفسيره يمكن القول أن الألوسي تنبه إلى دور الإجراءات اللغوية والبلاغية التي تقوم بدورها في إعادة تصحيح مسار الفهم لدى المتلقي⁽¹³⁸⁾.

النتائج والتوصيات:

من خلال هذا العرض لبعض ملامح التلقي في تفسير الألوسي يخلص الباحث إلى النتائج التالية:

- تنبه الألوسي في تفسير آي القرآن إلى دور الظواهر اللغوية والبلاغية في التأثير في المتلقي وإقناعه؛ فالنص يمثل استهدافاً للمتلقي بتأثيرات ووسائل أسلوبية يظهر تأثيرها عند تفاعل المتلقي مع النص.
- ذكر الألوسي تعدد أحوال المتلقين وبين تأثير النص الواحد على متلقين مختلفين.
- بين الألوسي في عديد من المواضع كيف يضبط النص شكل تلقيه.

¹³⁵ روح المعاني 10 / 367 أو مثله 8 / 12

¹³⁶ التداولية والحجاج 42.

¹³⁷ التداولية والحجاج 43.

¹³⁸ ويقترب هذا المفهوم من مفهوم ضبط الاستقبال عند ريفاتير وهو يعني به الوسائل الأسلوبية التي تعمل على وجوب فهم النص كما أراد مؤلفه أن يفهم إذ يظهر المؤلف "شديد الوعي بما يصنع؛ لأنه يهتم بالكيفية التي يريد أن تترجم بها رسالته إلى درجة أن ما ينقل إلى القارئ لا يقتصر على دلالة الرسالة، بل على موقف المؤلف من هذه الرسالة أيضاً، فهو يلزم القارئ بأن يفهم وهذا أمر طبيعي، ولكنه يلزمه أيضاً أن يشاطره الرأي فيما يهم وما لا يهم من رسالته" ريفاتير، معايير لتحليل الأسلوب 128

- بين الألوسي في تفسيره كيف يتفاعل المتلقي مع النص وكيف يتيح النص بإمكاناته اللغوية هذا التفاعل كمثال أن يثير في المتلقي سؤالاً ثم يجيب النص عن هذا السؤال.
- وصف الأنشطة التي يقوم المتلقي الفطن ليستنتج الدلالات الكامنة بالنص.

ويوصي الباحث إلى إعادة قراءة التراث من منظور حديث ليعرف موقع منجزات التراث العربي من الفكر اللغوي المعاصر.

قائمة المصادر والمراجع:

- الآمدي، أبو الحسن ابن بشر، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة، (د.ت)
- الألوسي، أبو الفضل شهاب محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق على عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 2001م.
- التفتازاني، سعد الدين، مختصر المعاني، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ.
- الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بشر، البيان والتبيين تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة السابعة 1418هـ.
- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ت)
- الحباشة، صابر، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر دمشق، الطبعة الأولى، 2008م
- الدينوري، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف مصر، (د.ت)
- الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة القاهرة، (د.ت)
- العمرى، محمد، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، إفريقيا الشرق - الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2002م
- القرطاجني، أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الثالثة 1986م.

ريفاتير، ميكائيل، معايير تحليل الأسلوب، ترجمة حميد حمداني، منشورات دراسات سال البيضاء، الطبعة الأولى، 1993م.

زكي، محمد صلاح، القضايا البلاغية والأسلوبية في مفتاح العلوم للسكاكي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب جامعة عين شمس القاهرة، 1996م.

سحلول، حسن مصطفى، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، اتحاد الكتاب العرب دمشق، 2001م.
سكر، أسامة حسن، السياق في التفكير البلاغي عند العرب في ضوء النظريات الحديثة، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة المنوفية، 2007م.

شليبي، طارق سعد، الدرس التطبيقي في النقد العربي، زهرة المدائن، القاهرة، 2001م.
صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لنظرية الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى، 2005م.
عبد المطلب، محمد، العلامة والعلامية دراسة في اللغة والأدب، الوطن العربي للنشر والتوزيع القاهرة، الطبعة الأولى، (د.ت.).

فضل، صلاح، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، ميريت للنشر والمعلومات، الطبعة الأولى، 2002م.
هشام مطاوع، السياق الثقافي لنظرية استقبال النص بين الدراسات العربية والغربية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة المنوفية، 2011م.

هولب، روبرت، نظرية التلقي، ترجمة: عز الدين إسماعيل، النادي الأدبي، جدة، ط1، 1994.

LATİN HARFLERİYLE KAYNAKÇA

el-Âmidî, Ebu'l-Hasen b. Bîşr, el-Muvâzene beyne Şî'ri Ebî Temmâm ve'l-Buhturî, thk. es-Seyyid Ahmed Sakr, Dâru'l-Maârif, Mısır-tsz., 4. bsk.

el-Alûsî, Ebu'l-Fazl Şihâb Mahmud, Ruhul-Me'ânî fî Tefsîri'l-Kur'ânî'l-'Azîm ve's-Seb'î'l-Mesânî, Dâru'l-Kutubi'l-'İlmiyye, Beyrut-2001, 1. bsk.

et-Teftâzânî, Sa'duddîn, Muhtasarul-Me'ânî, Dâru'l-Fikr, Beyrut-1411, 1. bsk.

el-Câhîz, Ebû Osman 'Amr b. Bîşr, el-Beyân ve't-Tebyîn, thk. Abdusselam Muhammed Harun, Mektebetu'l-Hâncî, Kahire-1418, 7. bsk.

el-Cürcânî, Abdulkâhir, Delâilu'l-İ'câz, thk. Mahmud Muhammed Şakir, Mektebetu'l-Hâncî, Kahire-tsz.

el-Hubâşe, Sâbir, et-Tedâvuliyye ve'l-Hicâc Medâhil ve Nusûs, Safahât li'd-Dirâsât ve'n-Neşr, Dimaşk-2008, 1. bsk.

ed-Deynûrî, İbn Kuteybe, eş-Şi'r ve's-Şuarâ, thk. Ahmed Muhammed Şakir, Dâru'l-Maârif, Mısır-tsz.

ez-Zehebî, Muhammed Hüseyin, et-Tefsîr ve'l-Mufessirûn, Mektebetu Vehbe, Kahire-tsz.

el-'Umerî, Muhammed, fi Belâğati'l-Hitâbi'l-Iknâ'î Medhal Nazarî ve Tatbîkî li Dirâseti'l-Hitâbe el-'Arabiyye, İfrîkyâ eş-Şark-ed-Dâru'l-Beyzâ, 2002, 2. bsk.

el-Kartacennî, Ebu'l-Hasen Hâzim, Minhâcu'l-Buleğâ ve Sirâcu'l-Udebâ, thk. Muhammed el-Habîb b. el-Hûce, Dâru'l-Ğarbi'l-İslâmî, Beyrut-1986, 3. bsk.

Rivater, Mîkâîl, Me'âyîru Tahlîli'l-Uslûb, trc. Humejd el-Hamdânî, Menşûrâtu Dirâsâti Sâli'l-Beyzâ, 1993, 1. bsk.

Zekiyy, Muhammed Sâlih, el-Kazâyâ el-Belâğîyye ve'l-Uslûbiyye fi Miftâhi'l-'Ulûm li's-Sekkâkî, Doktora Tezi, Aynu's-Şems Üniv. Edebiyat Fak. Kahire-1996.

Sahlûl, Hasen Mustafa, Nazariyyâtu'l-Kırâ'e ve't-Te'vîli'l-Edebî ve Kazâyâhâ, İttihâdu'l-Kuttâbi'l-'Arab, Dimaşk-2001.

Sukker, Usâme Hasen, es-Siyâk fî't-Tefkîri'l-Belâğî 'inde'l-'Arab fi Zav'i'n-Nazariyyâti'l-Hadîse, Yüksek Lisans Tezi, el-Munûfiyye Üniv. Edebiyat Fak. 2007.

Şelebî, Târik Sa'd, ed-Ders et-Tatbîkî fi'n-Nakdi'l-'Arabî, Zehrâtu'l-Medâin, Kahire-2001.

Sahrâvî, Mes'ûd, et-Tedâvuliyye 'inde'l-'Ulemâi'l-'Arab Dirâse Tedâvuliyye li Nazariyyeti'l-Ef'âl el-Kelâmiyye fi't-Turâsi'l-Lisânî el-'Arabî, Dâru't-Talî'a, Beyrut-2005, 1. bsk.

'Abdumuttalib, Muhammed, el-'Allâme ve'l-'Allâmiyye Dirâse fi'l-Luğâ ve'l-Edeb, el-Vatanu'l-'Arabî li'n-Neşr ve't-Tevzî', Kahire-tsz. 1. bsk.

Fazl, Sâlih, Menâhîcu'n-Nakd el-Mu'âsir ve Mustalahâtuhu, Mirit li'n-Neşr ve'l-Ma'lûmât, 2002, 1. bsk.

Hişâm Mutâvî', es-Siyâku's-Sekâfî li Nazariyyei İstikbâli'n-Nass beyne'd-Dirâsâti'l-'Arabiyye ve'l-Ğarbiyye, Yüksek Lisans Tezi, el-Munûfiyye Üniv. Edebiyat Fak. 2011.

Holb, Robert, Nazariyyetu't-Telakkî, trc. 'İzzuddîn İsmail, en-Nâdî el-Edebî, Cidde-1994, 1. bsk.

